

حرب المدينة الاوربية

والمقارنة بينها وبين المدينة الاسلامية ، والفتوحات العربية

لقد أرتنا هذه الحرب من ضروب العبر ، ما لم يكن يخطر قلبها على قلب بشر ، وهتكت لنا من أستار الرياء ، ما أرانا كثيرا من حقائق الاشياء ، التي لم يكن يلمحها الا أفراد الحكماء ، فظهر للذكي والبليد ، والغوي والرشيد ، ان هذه المدينة المادية ، مدينة قوة وحشية ، وشهوات بهيمية ، كانت تخدع الابصار وتفتن البصائر بما يدعيه أهلها في زمن السلم من حب الحق والتحلي بلباس الفضائل ، واقامة ميزان العدل ، وثل عروش أئمة الجور والظلم ، جبا في سعادة الناس ، ورغبة في المساواة بين الافراد والاجناس

وقد كان من مقدمات هذه الحرب بين الدول الكبرى حربان في البلقان ، اقرف فيهما البلقانيون من ضروب القسوة وفضائع العدوان ، وتقتيل الشيوخ والولدان ، وهتك الاعراض ونهب الاموال ، ما لم يعرف التاريخ اقبح منه منظرا ، ولا أسوأ عاقبة وأثرا ، ولم يكن يخطر في بال أحد أن هذه الموبقات يمكن ان يقع مثلها من دولة من الدول الكبرى ، دول العلم والفنون والمدينة الرائعة في هذا العصر الذي يفضلونه على جميع العصور ، ويسمونه عصر الحضارة والنور ، نعم ان أنواره المادية يكاد شماعها يذهب بالابصار ، ويمكن ان يفضل بها الليل على النهار ، ولكن يمثل لك في هذا الضوء عالم المدينة ، هيكلا من هياكل الوثنية ، قد نصب في محرابه تمثال القوة الحربية ، واضعا إحدى قدميه على الحق والاخرى على الفضيلة ، رافعا يمينه راية القهر والسلطة ، وبشمالها راية الشهوة واللذة ، والناس ما بين راحه له وساجد ، ومحرق للبخور ومقدم للذبايح

قلما كان أحد من الناس يظن ان دول العلم والحضارة تقترف مثل ذلك الظلم والعدوان ، وتجترح تلك السيئات التي اجترحتها شعوب البلقان ، فجاءت هذه الحرب مكذبة لظن الخير فيها ، وأحقت من القضاء بالقسوة والفظاعة عليها شر ما أحقت على من قبلها ، اذ كانت أقدر على التنكيل والتدمير من البلقانيين الذين

م حالة عليها ، بقدر ما آتاه العلم من أسبابها وآلاتها ، فقد جعلت العلم الجدير بأن يكون مصدر العدل والرحمة والسعادة ، مصدرا للظلم والقسوة والشقاوة ، فهذه دولة ألمانية المتنازعة بسعة العلوم واتقان الفنون ، قد امتازت بما اخترعته من آلات التخريب وأسباب المنون ، وينقل لنا عنها محاربوها ما تشعروا منه الجلود ، ويتصدع من هولها الحجر الجلود ، من مدافع تدرك الحصون والمعقل ، وغواصات تنسف البوارج والبواخر ، وغازات سامة يتكون منها دخان أخضر ، يقتفي آثاره الموت الأحمر ، فهو مصداق قول الله تعالى (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب اليم)

وضعوا للحرب قوانين لتخفيف نكباتها ومصائبها مستمدة محاسنها من الشريعة الاسلامية شريعة العدل والرحمة ، ولكن ثبت انهم مارعوها حق رعايتها ، وانما يعملون بها في بعض الامور الظاهرة المشتركة بين كل من المتقاتلين كعاملية الاسرى ، ومن آمن منهم ان يعاقب بمثل عاقب به لعجز خصمه أو لا مكانه إخفاء جنايته ، لم يلتزم أحكام قوانين الحرب وحقوق الدول ولا معاهداتها احترامالها ، أو حبا في الحق والعدل اللذين توضع القوانين والعهود لاجلها .

فأين حرب هذه الامم والدول التي خدع الناس كلهم حتى المسلمون بها ، وصاروا يياهون بفضائلها ، وارتقاتها في معارج المدنية الانسانية بعلومها وفنونها ، — من حرب الصحابة الذين كان أكثرهم أميين ؟ تلك الحرب التي لم يعرف التاريخ البشري مثلها في رعاية الحق والعدل والورع ، واستعمال الرأفة والرحمة في السر والعلن ، بل شهد فيلسوف التاريخ والاجتماع (غوستاف لوبون) للعرب كلهم بذلك فقال : ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب . فبذلك العصر النوراني فليفاخر المفاخرون ، لا بعصر الوحشية المنظمة التي جاء بها القرن العشرون

هل نقل ناقل أو قال قائل ان أحدا من الصحابة عليهم الرضوان أو ممن حارب معهم من التابعين انتهك عرضا ، أو قتل شيئا أو امرأة أو غلاما ، أو سلب لأحد من أعدائه مالا ، أو هدم كنيسة أو دبرا ، أو قتل راهبا أو قسيسا ؟ أو مثل يقتيل ،

أو أجهز على جريح ؟ كيف وقد كان الرسول (ص) يوصيهم بمثل قوله « انطلقوا باسم الله وبالله (ص) ولا تقتلوا شيخا فانيا^(١) ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ، ولا تغلوا ، وضموا غنائمكم ، (واحسنوا ان الله يحب المحسنين) » رواه أبو داود من حديث انس بن مالك - وروى احمد من حديث ابن عباس قال كان رسول الله (ص) اذا بعث جيوشه قال « اخرجوا باسم الله تعالى تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا^(٢) ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع »

ومن وصايا الخليفة الأول أبي بكر الصديق (رض) المقتبسة من مشكاة النبوة مارواه مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد ان ابا بكر بعث جيوشا الى الشام فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان - وكان يزيد أمير ربيع من تلك الارباع - فقال اني موصيك بعشر خلال : لا تقتل امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرماء ، ولا تقطع شجرا مشمرا ، ولا تخرب عامرا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا الا لما كله ، ولا تعقرن محلا ولا تحرقه ، ولا تغلل ولا تحجن^(٣)

نعم قد كان يقع قليل من الشذوذ يقابل بالانكاره الا اذا دفع اليه الاضطرار ، والنادر لا حكم له . روى الشيخان وأصحاب السنن ما عدا النسائي وغيرهم عن ابن عمر قال : وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي (ص) فنهى رسول الله (ص) عن قتل النساء والصبيان .

وروى احمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن رباح بن ربيع انه خرج مع رسول الله (ص) في غزوة غزاها وعلى مقدمته خالد بن الوليد فمروا برباح وأصحاب رسول الله (ص) على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة فوقفوا ينظرون اليها

(١) المراد بالشيخ الغاني من لا يقاتل وقد كان الناس كلهم مقاتلة الا هؤلاء الذين نهى الحديث عنهم والقاعدة الاسلامية العامة انه لا يقاتل الا من يقاتل (٢) الغلول الحيازة والغنائم . والتمثيل تشويه الأعضاء بنحو قلع العين وجدع الاذن وصلم الاذن . وقد حرم الاسلام بالتمثيل بالقتلى فضلا عن الاحياء ، وقد ثبت وقوع التمثيل في حرب المدينة الاوربية وفي الحرب البلقانية قبلها

(٣) أخبن الرجل خبا في خبنة ثوبه أو سراويله شيئا . والخبنة بالضم طية الثوب وثنيته . وفي نسخ الموطأ المطبوعة وأكثر الكتب التي نقلت عنه : ولا تحجن بالجيم

حتى لحقهم رسول الله (ص) على راحلته فأفرجوا عنها ، فوقف عليها رسول الله (ص) وقال : ما كانت هذه لتقاتل — وقال لأحدهم — الحق خالدا قتل له لا تقتلوا ذرية ولا عسيفا » (٢) وروى أبو داود في مراسيله عن عكرمة ان النبي (ص) مر بامرأة مقتولة يوم حنين فقال « من قتل هذه » ؟ فأخبره رجل انه كان غنمها فلما رأت الهزيمة أهوت الى قائم سيفه لتقتله به فقتلها قبل ان تقتله . ولا أتدكر قتل امرأة في مغازي النبي (ص) غير هاتين الا تلك المرأة اليهودية التي أمرها زوجها ان تلقي الرمح على بعض المسلمين في غزوة بني النضير ليقتلوها فلا تعيش بعده اذ كان موطنها نفسه على ان يقاتل حتى يقتل ففعلت

وقد كان رفيق النبي (ص) بالنساء أعظم من ذلك فقد روى ابن اسحق ان بلالاً مر بصفية وابنة عم لها على قتلى يهود بعد سقوط حصن بني أبي الحقيق فلما رأت المرأة القتلى صكت وجهها وصاحت وحشت التراب على وجهها فقال النبي (ص) بلال « أتوت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما » ؟

ومن ضرور العبوة في حرب المدينة الاوربية كثرة ما يتقاضونه من البلاد التي يتحونها من الغرامات ، وما يفرضونه عليها من الأتاوات ، وقد كان المسلمون الاولون يكلفون أهل البلاد ضيافة ثلاثة أيام ، لضرورة الحاجة الى القوات وعدم تيسر أسبابه بالطرق النظامية المتبعة في هذه الايام ، وأما الجزية والخراج اللذان يفرضونهما على أهل البلاد فهما أقل مما تفرضه كل حكومة من حكومات الارض على أبناء جنسها في بلادها ، دع ما تفرضه الحكومات الاوربية في مستعمراتها فهو يستغرق معظم غلات أرضها فلا يبقى لأكثر أهلها منها الا ما يسد الرمق ، ويستعين به على مداومة العمل ، وقد قرأنا في الصحف ما فرضه الألمان على أهل بلجيكة من الغرامات وما حملوه من الأثقال ، بعد ما حل بهم ما حل من الخزي والتكال ، فإذا هو مما تعجز عن حملة الجبال لالجمال ، ولا غرو فان كل حظ أهل هذه المدينة المادية

(١) المسيف الاجبر

من الحياة والدافع لها الى القتال ، انما هو الاستكثار من جمع الاموال ، والتمتع بالثروة والعظمة والسلطة والجاه ، ولو ظفر البلجيكيون بالالمان ، لأنزلوا بهم الخزي والهوان ، وعاملوهم كما عاملوا أهل الكونغو منذ أعوام ، فأين هذا من عفة المسلمين ولا سيما الصحابة الكرام .

روى البلاذري في فتوح البلدان عن سعيد بن عبد العزيز قال : بلغني انه لما جمع هرقل للمسلمين الجوع وبلغ المسلمين اقبالهم عليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم . فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والنشم ، ولندفن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا ان تغلب ونجهد . فأغلقوا الابواب وحرسوها . وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه ، والا فانا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد . فلما هزم الله الكفرة (يعني الروم أي الرومانيين) وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلسين وأدوا الخراج . اهـ

وفي رواية احفظها ولا أتدكر موضعها الآن أن الصحابة لما ردوا ما كانوا أخذوا من الجزية قالوا انا كنا أخذناها جزاء حمايتكم والدفاع عنكم وقد عجزنا الآن عن ذلك ، فحلف الاهالي ان أبناء دينهم ما كانوا يرجعوا مالا أخذوه الخراج فهل عهد من فالح في الاولين والآخريين ان يرد الخراج الى أهل البلاد التي يشتمها ، بناء على ان الخراج لا يباح أخذه الا لأجل حفظ البلاد والدفع عنها ، وان المعجز عن ذلك وان كان في سبيل الدفاع عن تلك البلاد يوجب رد الاموال الى أصحابها ؟ لا لا ، ان هذا العدل والورع لم يعرفه البشر الا من الصحابة رضي الله عنهم ، فان كان من وليهم من خلفاء العرب وامرائهم دونهم ، فهم يفضلون سائر الامم في رقتهم وقناعتهم

كان بنو أمية أحرص العرب على نعيم الملك وسعة العيش ، فخرجوا في كثير من أمر السلطة والتصرف في بيت المال عن السنة المتبعة وسيرة الخلفاء الراشدين

وانما استقام عليها منهم عمر بن عبد العزيز . أما سيرتهم في الغزو والقضاء بين الناس
 وادارة البلاد فكانوا يتحرون فيها العدل والرحمة ، وكذلك كانت سيرة
 العباسيين في الشرق ، والامويين في الغرب (أي الاندلس) ومن شد عن ذلك
 لغير سبب حفظ الملك كان مذموما وعرضة للعقاب ، وقد تضاعفت ثروة الممالك
 واستبحر عمراتها بعد أن اتزعوها من الروم والفرس . بما كانوا يسوسونها به من
 الرحمة والعدل ، ولم يفتن لهذا بعض الكتاب الذي انبرى في هذه الايام الى ذم
 ولاية العرب بكونهم لم يكن لهم هم الإيجابية الخراج ، وقوله في أفراد منهم انهم لم يفعلوا
 شيئا للبلاد ، أو لم يقل فلان المؤرخ انهم فعلوا شيئا — وهو يعلم علما ضروريا ان
 عدم القول لا يستلزم عدم الفعل ، وان ماسكت عنه زيد يجوز ان لا يسكت عنه عمرو ،
 ويعلم علما تقليا أن مزية الفاتحين الاولين من العرب هي العدل والرحمة لا الصناعة التي
 امتاز بها مؤسسو الاهرام وأمثالهم ، وكانت ولا تزال شاهدة على استبدادهم وظلمهم
 كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز يشكو اليه قلة دخل بيت المال بمصر
 بكثرة دخول الناس في الاسلام ، ويستأذنه في ضرب جزية على المسلمين . فكتب
 اليه عمر هذه الكلمة العالية « ان محمدا (ص) بُعث هاديا ، ولم يبعث جايا »
 وكتب اليه عدي بن أرطاة : أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين فان قبلي أناسا
 من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالا عظيما لست أرجو استخراجهم (وفي
 رواية : لست أقدر على استخراجهم) من أيديهم الا أن أمسهم بشيء من العذاب .
 فان رأى أمير المؤمنين ان يأذن لي في ذلك فعل « فأجابه بقوله :
 « أما بعد فالعجب كل العجب من استئذنانك إياي في عذاب بشر ، كأنني لك
 جنة من عذاب الله . وكان رضائي عنك ينجيك من سخط الله عز وجل ، فانظر
 من قامت عليه بينة عدول فخذها بما قامت عليه به البينة ، ومن أقر لك بشيء فخذ
 بما أقر به ، ومن أنكرفاستحلفه بالله العظيم وخل سبيله . وأيم الله لأن يلقوا الله
 عز وجل بخياناتهم ، أحب الي من ألقى الله بدمائهم . والسلام »
 وروي عن يحيى الفسائي أنه قال : لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل قدمتها
 فوجدتها من أكثر البلاد سرقا وتبعا ، فكتبت الي عمر أعلمه حال البلد وأسأله :

أخذ الناس بالظنة ، وأضربهم على التهمة ، أم أخذهم بالينة ، وما جرت عليه السنة ؟ فكتب الي أن خذ الناس بالينة وما جرت عليه السنة ، فان لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله . قال يحيى ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقا وتبا .

ومن ضرب العبرة في هذه الحرب ما تراه في كلام كثير من الكتاب من بنائها على قاعدة من قواعد المدنية الحديثة قررها الالمان وتوسعوا في فلسفتها وألفوا فيها الكتب ، وواقفهم عليها من واقفهم بالقول والفعل أو بالفعل دون القول - وهي قاعدة « الحق القوة » - وقد نشرنا في الجزء الذي قبل هذا مقالا في شأن الكتاب الذي ألفه أحد قواد الالمان وعلمائهم (الجنرال فون برنهاردي) في ذلك وسماه (المنطق والمبادئ في الحروب) وفي نقد مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية له ، ومنه تعلم أنهم جعلوا الأثرة وتفضيل الاقوياء على الضعفاء حتى في الحقوق المدنية مما تقتضيه الفضيلة والحكمة بل زعموا أنه من أصول الديانة المسيحية وأحكامها ، وان مساواة الشعب الغالب للشعب المغلوب لا يجوز في نظر العلم والفلسفة ولا في حكم الدين ندع لعلماء اللاهوت ورجال الكنيسة حكمهم فيما عراه الجنرال الالماني وغيره الى الديانة المسيحية مع اعتقادنا ان من آداب دين المسيح عليه السلام المبالغة في الايثار (الذي يعبر عنه القوم بانكار الذات) وهو ضد الأثرة التي يدعيها هذا الفيلسوف الالماني وغيره ، فهو ينافي طلب السلطة وانتزاع ملك الناس وملكهم بالقوة ، لاجل التمتع بالجاه والذمة ، لان من قواعد الانجيل ان يعطي المؤمن ماله لغيره ، فكيف يتفق هذا مع انتزاعه من غيره ما يملكه ؟ وأما الاسلام فهو وسط بين هذه المدنية المادية ، وبين زهد المسيحية ، فهو دين سيادة وسلطة مدنية ، وفضيلة أدبية روحية ، فالايثار فيه فضيلة مندوبة ، وهو في المسيحية فريضة مطلوبة ، قال الله تعالى في وصف المؤمنين (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) . وأما قاعدة الاسلام في الاحكام فهي العدل والمساواة في الحقوق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والتقريب والبعيد ، والحبيب والبغيب ، قال تعالى (٥ : ٨٠) ولا يجرمنكم شتان قوم على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى) والآيات في هذا

المعنى كثيرة أوردنا طائفة منها في الرد على الكاتب الأمريكي الذي زعم - فيما كتبه بمناسبة إلغاء الدولة العثمانية الامتيازات الاجنبية - ان الشريعة الاسلامية جاءت بعدم المساواة بين المسلم وغيره ، وبيننا هنالك انه لا تعرف شريعة في الارض قررت هذه المساواة غير الشريعة الاسلامية . وقد جرى على ذلك الخلفاء الراشدون على وجه الكمال ، وكان هو الاصل والقاعدة عند الامويين والعباسيين في القضاء . وأما وقع الشذوذ والخروج عنه في بعض الاحكام السياسية والعسكرية واقعة مساواة عمر بن الخطاب بين علي صهر الرسول وابن عمه وبين رجل من عامة اليهود ، وغلط عمر في تسمية اليهودي وتكنية علي ، واستياء علي منه لتفضيله اياه على خصمه بالتكنية ، واعترافه هو بأن ذلك خطأ - واقعة مشهورة معروفة . وقد جرى لعمر بن عبد العزيز ما يقرب منها :

قال الحكم بن عمر الرعيبي : شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم اهل دير اسحق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة ، فقال عمر لمسلمة : لا تجلس على الوسائد وخصاؤك بين يدي . ولكن وكل بخصومتك من شئت والا فإني ^(١) القوم بين يدي . فوكل مولى له بخصومته ففضى عمر عليه بالناعورة . ذكره الحافظ ابن الجوزي في سيرته

قلت أن هذه الواقعة تشبه واقعة علي مع اليهود . وأعني بالتشبيه المساواة في التكريم والاحترام بين الرفيع وان كان بيت النبوة أو الملك وبين سائر الناس حتى من غير المسلمين ، فعلي كان سيد آل بيت الرسول وعمادهم ، ومسلمة كان من بيت الملك فهو ابن عبد الملك بن مروان ، وناهيك بما كان لبني عبد الملك من العز والسلطان .

أما المساواة في الحقوق نفسها فكانت هي الاصل الذي يجري عليه كل الحكام الا من شذ لاسباب عارضة أو لفساد في خلق الشخص ووقائعها في عهد عمر بن عبد العزيز لا تحصى . وقد كان أول مظلمة رفعت اليه يوم توليته مظلمة

(١) اي اجلس بازائهم جاثيا على ركبك مثلهم اذلا تمييز في الخصومة بين ابناء الخلفاء والامراء وبين دهاء الناس كاهل الدير وغيرهم

ذمي من أهل حمص ادعى ان العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبه أرضه ، قال عمر : يا عباس ما تقول ؟ قال أقطعنيها — أي الارض — أمير المؤمنين الوليد بن الملك وكتب لي بها سجلا . فقال : ما تقول يا ذمي ؟ قال يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل . فقال عمر : كتاب الله أحق ان يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، اردد عليه يا عباس ضيعته . فردها عليه

وقد كان أهل بيت الملك من بني أمية تأفلوا ضياعا ومزارع كثيرة من بيت المال ، وكان لبعض الناس في بعضا حق أو مقال ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز ردها ، وكان أول ما بدأ به رد ما كان له ولولده من ذلك

وروي انه استشار مولاه مزاحما في ذلك فقال : يا مزاحم ان هؤلاء القوم اعطونا عطايا والله ما كان لهم ان يعطونا اياها وما كان لنا ان نقبلها ، وان ذلك قد صار الي ليس عليّ فيه دون الله محاسب . فقال له مزاحم يا أمير المؤمنين هل تفري كم وادك ؟ امهم كذا وكذا . قال فذرفت عيناه فجعل يستدمع ويقول . أكلهم الى الله تعالى . ثم ذهب مزاحم وذ كرك ذلك لعبد الملك بن عمر عسى ان يكف أباه عن ذلك . فقال له عبد الملك : بئس وزير الدين أنت يا مزاحم . ثم وثب فانطلق الى بيت أبيه عمر فاستأذن عليه فقال له الاكذن : ان أمير المؤمنين قد وضع رأسه للقائلة . قال استأذن لي . قال : أما ترجمونه ليس له من الليل والنهار الا هذه الوقعة . قال عبد الملك : استأذن لي لا أم لك . فسمع عمر الكلام فقال : من هذا ؟ قال هذا عبد الملك . قال ائذن له . فدخل عليه وقد اضطجع للقائلة فقال : ما حاجتك يا بني في هذه الساعة . قال : حديث حدثنيه مزاحم . قال فأين وقع رأيك من ذلك ؟ قال وقع رأيي على انفاذه . قال فرقع عمر يديه وقال : الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني . نعم يا بني ، أصلي الظهر ثم أصعد المنبر فأردها علانية على رؤوس الناس . فقال عبد الملك : ومن لك بالظهر يا أمير المؤمنين ! ومن لك ان بقيت الى الظهر ان تسلم لك نيتك الى الظهر ! فقال قد تفرق الناس ورجعوا للقائلة . فقال عبد الملك تأمر مناديك ينادي : الصلاة جامعة . فيجتمع الناس (قال اسماعيل بن أبي حكيم الراوي لهذه الواقعة وهو من رجال صحيح مسلم) فنادى المنادي : الصلاة

جامعة. فخرجت فأتيت المسجد فجاء عمر فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
 أما بعد فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا والله ما كان لهم ان يعطوناها ،
 وما كان لنا ان نقبلها ، وان ذلك قد صار اليّ ليس عليّ فيه دون الله محاسب . ألا
 واني قد رددتها وبدأت نفسي واهل بيتي . اقرأ يا مزاحم .

قال الراوي : وقد جيء بسفط قبل ذلك - او قال جونة - فيها تلك الكتب .
 فقرأ مزاحم كتابا منها فلما فرغ من قراءته ناوله عمر - وهو قاعد على المنبر ويده
 جلم (أي مقص) فجعل يقصه بالجلم ، واستأنف مزاحم كتابا آخر فجعل يقرؤه فلما فرغ
 منه دفعه الى عمر فقصه ، ثم استأنف كتابا آخر ، فما زال حتى نودي بصلاة الظهر
 هذه هي أحكام الاسلام فن خالفها كان خارجا عن هديه ، استعملوا القوة ، في
 اقامة العدل مع الرحمة ، وبذلك ساد من ساد من خلفائهم ودولهم ، فقاعدتهم
 « القوة للحق » وقاعدة المدينة الحديثة « الحق للقوة » واما المتأخرون منا فهم
 مذنبون بن ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، وما رأيت أصدق في وصف
 القوم ووصفهم من قول شاعر بني العنبر أول شعراء الحماسة :

لو كنت من مازنٍ لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
 اذا لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
 قوم اذ الشر ابدى ناجديه لهم طاروا اليه زرقاتٍ ووحدانا
 لا يسألون أخاه حين يندبهم في النسائبات على ما قال برهانا
 لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا
 يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن اساءة أهل السوء احسانا
 كان ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا
 فليت لي بهم قوما اذا ركبوا شنو الإغارة فرسانا وركبانا

ومن ضر وب العبرة في هذه الحرب ما نراه في أخبارها من الكذب والتناقض
 والتعارض والتهاوتر والتمويه والتدليس وسوء التحريف وفساد التأويل ، يشترك في

ذلك أصحاب الشركات البرقية . والجرائد السياسية ، حتى سرى الى المجالات التاريخية والعلمية ، بل لم يعد أحد من الناس يثق كل الثقة بالانقارير والبلاغات الرسمية لانهم يرون كل خصم يكذب خصمه في أخباره الرسمية . ولو سئل أصحاب الجرائد في كل قطر من الاقطار عن سبب ما ينكر عليهم مما ذكر — لا جاوبوا: ان سببه الاول تضيق حكوماتنا علينا ، وإلزامها إيانا عرض كل ما نكتبه على رقباها الذين سلخوا حرية الكتابة منا ، مع اجتهادنا في جعل ما نكتبه موافقا لمصلحتها ، وتجنبنا من تلقاء أنفسنا كل ما نرى ان نشره مخالف سياستها .

هذا عذر عارض ، والمشهور بين الناس ان الجرائد لا تتحرى الصدق فيما تنشره لاني أيام السلم وعهد الحرية ، ولاني أيام الحرب وعهد المراقبة ، وانها تعتمد الكذب والتمويه اذا كان لها في ذلك منفعة . والحق انها تواريخ فيها الصادق والكاذب ؛ والحق والباطل ، تجمع بين الدرّة والبصرة ، وتأتي بالذرة واذن الجرّة ؛ وانني لا أشهد لجريدة من الجرائد التي أعرفها في الشرق انها تمثل حال البلاد التي تصدر فيها والامة التي تتكلم عنها تمثيلا صحيحا كما يعرفه المختبر للبلاد وللامة . ولو كانت هذه الجرائد في عصر رجال الجرح والتعديل من المحدثين ، لجعلوا أصحابها في عداد الوضاعين ، ولم يرتقوا بهم الى درجة الضعفاء أو المدلسين . كيف وقد ضعف بعضهم القاضي الواقدي وبعضهم قال انه كذاب وانه كان يضع الحديث . وهو من اكبر الحفاظ واشهر المؤلفين ، كتب عنه سليمان الشاذكوني كتابا ثم اتاه فسأله عما كتبه عنه قبل ان يخرج به ، فاذا هو لم يغير حرفا منه

لم تُعنّ أمة من أمم العلم تمثل ما عنى به المسلمون من ضبط الرواية في القرون الاولى . فان كانوا دونوا في تواريخهم كل ما قيل ماصح منه وما لم يصح لاجل الجمع والاحصاء ، فالعمدة عندهم على الاسانيد ، فما كان محل الشبهة منها أمكن تمحيص الرواية فيه بالبحث عن رجال سنده . فاذا انفرد بعض الرواة او المؤرخين بطعن في العلويين أو الامويين أو العرب — مثلا — يمكننا بالنظر في السند أن نعرف هل فيه أحد المتعصبين غير الثقات من النواصب أو الروافض أو الشعوبية فتممه بوضعه أم لا؟ وتحرير هذه المسألة لا يمكن الا بمقال طويل ، وعلى الله قصد السبيل .